مفهوم ومصطلح أحرف المدّ عند القدماء والمحدثين: دراسة في ضوء اللّسانيات الوظيفية

م . م . داخل عبيس حميد
وزارة التّربية _ المديرية العامة لتربية بغداد _ الرّصافة الثّانية
Abwshybaldfay@gmail.Com

The Concept and Term of Vowel Lettes among The Ancients: A study in light of Functional linguistic

M .M. Dakel Abis Hamid Sarih
Baghdad Education Directorate, Second Ruzafa
Abwshybaldfay@gmail.Com

الملخص باللغة العربية

تُعدّ اللسانيات الوظيفية من الاتجاهات الحديثة التي أولت اهتمامًا بالغًا للعلاقة بين البنية اللّغويّة ووظيفتها الاتصالية، وهي ترى أنّ اللّغة ليست مجموعة من القواعد الصّورية فحسب، بل نظامٌ متكامل يهدف إلى تحقيق التّواصل والمعنى، ومن أبرز الظّواهر الصّوتية التي يمكن دراستها وفق هذا الاتجاه أحرف المدّ (الألف، الواو، الياء)، لما تؤدّيه من أدوارٍ تتجاوز النّطق إلى التّعبير والمعنى والإيقاع، وقد اهتمّ العلماء العرب الأوائل بهذه الحروف في كتبهم الصّوتيّة والنّحوية، لكنّ اللّسانيات الحديثة أعادت تأطير هذا الاهتمام ضمن منظورٍ وظيفيّ دقيقٍ يربط الشكل بالأداء والمعنى.

تتناول هذه الدّراسة المفهوم والمصطلح لأحرف المدّ في اللّغة العربيّة من منظور تاريخي ووظيفي، مستعرضًا آراء القدامى والمحدثين، وتحليلها وفقًا للسانيات الوظيفيّة الحديثة، وتشير النّتائج إلى أنّ القدماء ركزوا على البعد الصّوتي والوزني، بينما وسع المحدثون مفهوم المدّ ليشمل البعد النّصي والبلاغي ، موضحين دور المدّ في الإيقاع، والفصاحة، وتوصيل المعنى.

وبما أنَّ اللّسانيات الوظيفيّة علمٌ يدرس اللّغة من حيث الوظائف التي تؤديها عناصرها، سواء كانتْ صوتًا أو كلمة أو جملة أو نصًا، فهي تبحث عن الغاية التي من أجلها تُستخدم البنية اللّغويّة، وقد رأى أندريه مارتينيه أنّ، "اللّغة جهازٌ من الأدوات يخدم غاية التّواصل بين الأفراد". كما بيّن مايكل هاليداي أنّ اللّغة تعمل بثلاث وظائف كبرى: الوظيفة الأيديولوجية (الأفكار والمعاني)، الوظيفة الشّخصية (التّعبير عن الذّات)، الوظيفة النّصّية (تنظيم الخطاب)، وبذلك، فإنّ أيّ عنصر لغويّ – حتى الصّوت الواحد – لا يُدرَس بمعزل عن وظيفته التّواصلية داخل النسق.

وقد خلصتْ الدّراسة إلى أنّ القدماء، وإنْ لم يستخدموا المصطلح اللّساني المعاصر، فقد أدركوا بعمقٍ العلاقة بين الصّوت والمعنى، وأسسوا لتصوّرٍ قريب من المفهوم الوظيفي الحديث.

الكلمات المفتاحية:

احرف المد ، الاصوات، القدماء، المحدثين، اللّسانيات الوظيفية، الفونولوجيا.

Abstract

Functional linguistics is one of the modern trends that has paid great attention to the relationship between linguistic structure and its communicative function. It sees language not only as a set of formal rules, but as an integrated system that aims to achieve communication and meaning. Among the most prominent phonetic phenomena that can be studied according to this trend are the long vowels (alif, waw, ya), because of the roles they play that go beyond pronunciation to expression, meaning, and rhythm. Early Arab scholars paid attention to these letters in their phonetics and grammar books, but modern linguistics has reframed this interest within a precise functional perspective that links form to function and meaning.

This study examines the concept and terminology of vowel letters in Arabic from a historical and functional perspective, reviewing the views of both classical and modern scholars and analyzing them according to modern functional linguistics. The results indicate that classical scholars focused on the phonetic and metrical dimensions, while modern scholars broadened the concept of vowel lengthening to include the textual and rhetorical dimensions, clarifying its role in rhythm, eloquence, and conveying meaning.

Since functional linguistics is a science that studies language in terms of the functions performed by its elements, whether sound, word, sentence, or text, it seeks the purpose for which the linguistic structure is used. André Martinet saw language as "a tool apparatus serving the purpose of communication between individuals," and Michael Halliday demonstrated that language functions in three major ways: the ideological function (ideas and meanings), the personal function (self-expression), and the textual function (organizing discourse). Thus, any linguistic element— Even a single sound—not studied in isolation from its communicative function within the system

The study concluded that the ancients, although they did not use modern linguistic terminology, deeply understood the relationship between sound and meaning, and established a conception close to the modern functionalist concept.

Keywords: Vowels, Sounds, Ancients, Moderns, Functional Linguistics, Phonology

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

تُعدّ دراسة الأصوات أحد المرتكزات الأساسية في الدّرس اللّغوي العربي القديم والحديث على السّواء، وقد حظيتْ أحرف المدّ (وهي الألف، والواو، والياء)، باهتمامٍ كبير لما تؤدّيه من وظائفٍ صوتيةٍ وصرفيةٍ ودلالية، فهي من جهةٍ أصواتٌ متميزة في نظام الفونيمات العربية، ومن جهةٍ أخرى أدوات تمدّ النّطق وتلينه وتضبط الإيقاع في الكلام، ولئن تناول القدماء هذه الحروف في سياقٍ نحويّ وصرفيّ وصوتيّ، فإنّ المحدثين أعادوا النّظر فيها من خلال المناهج اللّسانية، ولا سيّما اللّسانيات الوظيفية التي تدرس اللّغة بوصفها نسقًا متكاملاً يقوم على ترابط الشّكل بالوظيفة. من هنا تأتي أهمية هذه الدّراسة التي تسعى إلى بيان مفهوم أحرف المدّ ومصطلحها عند القدماء والمحدثين، وتحليل تطوّر النّظر إليها في ضوء اللّسانيات الوظيفية.

وقد فرق القدماء بين الحركات وحروف المدّ مع ما بينها من اشتراك، فأطلقوا على (الألف، والياء، والواو) حروف المدَّ، وسمَّوا الفتحة، والكسرة، والضمَّة حركات لا شكَّ أنَّ المتقدمين قد طرَقَ هذا التساؤل أذهانهم عن وجه التقارب بين حروف المد والحركات الثلاث؛ لذلك ابن جني يقول: "وإنما سميت هذه الأصوات الناقصة حركات، لأنها تقلق الحرف الذي تقترن به، وتجتذبه نحو الحروف التي هي أبعاضها، فالفتحة تجتذب الحرف نحو الألف والكسرة تجتذبه نحو الياء، والضمة تجتذبه نحو الواو، ولا يبلغ الناطق بها مدى الحروف التي هي أبعاضها؛ فإن بلغ بها مداها، تكملت له الحركات حروفا، أعني ألفا وياء وواوًا" (ابن جني، ١٩٥٤م، ١/ ٣٠). ويوضح هذا النّص ابن جني أكثر بقوله:" فالمفتوح: هو الذي إذا أشبعت حركته حدثت عنها ألف، نحو ضاد ضرب، لك أن تشبع الفتحة، فتقول: ضارب. والمكسور: هو الذي إذا أشبعت

حركته حدثت عنها ياء نحو ضاد ضراب، لك أن تشبع الكسرة فتقول ضيراب. والمضموم: هو الذي إذا أشبعت حركته حدثت عنها واو، نحو ضاد ضرب، لك أن تشبع الضمة، فتقول: ضورب؛ إلا أن هذه الأحرف اللائي يحدثن لإشباع الحركات، لا يكن إلا سواكن، لأنهن مدات, والمدات لا يتحركن أبدا"(ابن جني، ١٩٥٤م،١/٣١). ويوضح ابن يعيش قول ابن جني بقوله : "اعلم أنّ الفتحة قد تمال كما تمال الألف؛ لأنّ الغرض من الإمالة مشاكلةُ الأصوات، وتقريبُ بعضها من بعض. وذلك موجودٌ في الحركة كما هو موجود في الحرف؛ لأنّ الفتحة من الألف. وقد كان المتقدّمون يسمّون الفتحة الألفَ الصّغيرةَ، والضّمّة الواو الصّغيرة؛ والكسرة الياء الصّغيرة؛ لأنّ الحركات والحروفَ أصواتٌ. وإنّما رأى النّحويون صوتًا أعظمَ من صوت، فسمّوا العظيمَ حرفًا، والضّعيفَ حركةً، وإن كانا في الحقيقة شيئًا واحدًا، فلذلك دخلت الإمالةُ في الحركة كما دخلت الألف، إذ الغرضُ إنّما هو تجانسُ الصّوت، وتقريبُ بعضها من بعض. فكلُّ ما يوجب إمالةَ الألف يوجب إمالة الحركة التي هي الفتحةُ، وما يمنع إمالةَ الألف يمنع إمالة الفتحة "(ابن يعيش، ٢٠٠١م، ٥/ ٢٠٤).

وعلى هذا فإن التّفريق بينهما مبني على كميّة الصّوت ، أو بمعني آخر الوقت الذي يستغرقه النّطق بكل منهما ، ولذلك يقول ابن سينا : " ولكني أعلم يقينا أنَّ الألف الممدودة المصوتة تقع في ضعف أو أضعاف زمان الفتحة، وأنَّ الفتحة تقع في أصغر الأزمنة التي يصحّ فيها الانتقال من حرف إلى حرف. و كذلك نسبة الواو المصوتة إلى الضّمَّة، والياء المصوتة إلى الكسرة"(ابن سينا، ١٩٨٣م، ٨٥)، وهذه النّصوص التي عرضها الباحث هي نزر قليل مما قيل في مفهوم المدّ يشبه من وجه الباحث ما جاءتْ بهِ اللّسانيات الوظيفية الفونولوجيا، التي تدرس الصّوت لا من حيث مخارجه فحسب، بل من حيث وظيفته التّمييزية في النّظام الصّوتي ففي الفونولوجيا المقطعية:

يرى المحدثون أنّ أحرف المدّ تمثل فواعل صوتية طويلة تقابل الفواعل القصيرة، وتدخل في بناء المقطع الصّوتي فيحمل الصّوت وظيفة تمييزية إذ يسهم في ضبط النّسق الإيقاعي للكلام العربي، كما في التّلاوة القرآنية والشّعر.

يختلف المفهوم عن المصطلح في أنّ المفهوم يركز على الصّورة الذّهنية، أما المصطلح فإنه يركز على الدّلالة اللّفظية للمفهوم، كما أن المفهوم أسبق من المصطلح، فكل مفهوم مصطلح، وليس العكس، وينبغي التّأكيد على أن المفهوم ليس هو المصطلح، وإنما هو مضمون هذه الكلمة، ودلالة هذا المصطلح في ذهن المتعلم؛ ولهذا يُعدُّ التّعريف بالكلمة أو المصطلح هو(الدّلالة اللّفظية للمفهوم).

مشكلة البحث

إنَّ مشكلة البحث تتمثل في وجود تباين واضح بين مفهوم أحرف المد عند علماء اللّغة العربية القدماء والمحدثين؛ لأنّ هناك تباين واختلاف المصطلحات والدّلالات الوظيفية المرتبطة بها، الأمر الذي يثير تساؤلات حول طبيعة هذا التّطور المعرفي ومدى انسجامه مع التّصور اللّساني الوظيفي الحديث.

أهداف البحث

١- لمعرفة مفهوم أحرف المد عند القدماء والمحدثين.

٢- الكشف عن التّطور الاصطلاحي لمفهوم أحرف المد.

٣- إبراز أوجه الاختلاف و الاتفاق بين آراء القدماء والمحدثين.

٤- دراسة أحرف المد في ضوء اللّسانيات الوظيفية.

٥- توضيح وبيان الوظائف الصّوتية والدّلالية لأحرف المدّ في اللّغة العربية.

أهمية البحث

تكمن أهمية البحث في:

١- إبراز الجهود الصّوتية عند علفماء اللّغة العربية القدماء.

٢- ربط التّراث اللّغوي العربي بالدّراسات اللّسانية الحديثة.

٣- الإفادة من اللّسانيات الوظيفية في تفسير الظّواهر الصّوتية للغة العربية.

٤- الإسهام في بيان وتوضيح المصطلحات الصّوتية وتطورها الدّلالي.

المبحث الاول: العلاقة والتّشابه بين حروف المد والحركات المجانسة لها

إنَّ حروف المدّ والحركات امتدادٌ زمني للحركات التي تجانسها، فالألف امتداد للفتحة والواو امتداد للضمة والياء امتداد للكسرة، والعلاقة بين حروف المد والحركات المجانسة لها علاقة وثيقة من النّاحية الصوتية والدّلالية، ومن ثم فإنّ العلاقة الدّلالية بين حروف المدّ والحركات المجانسة لها تقوم على أن حروف المدّ ليست أصواتًا مستقلة تمامًا عن الحركات، بل هي صورة مطولة لها, تشترك معها في المخرج والصفة، وتضيف إليها بعدًا دلاليًا وإيقاعيًا ناتجًا عن الامتداد الزمني للصوت،

إنَّ الحروف والحركات أصوات يتكون منها اللّفظ والكلام العربي، ومن هذه الأصوات المتفقة في مخارجها ومتقاربة في صفاتها, بحروف المدّ والحركات بعضها تسمى بـ"حروف المد و اللّين وهي أنفس الحركات، إلّا أنّها مُدت، وطُوّل بها الصّوت" (السّهيلي، ١٩٩٢م، ٧٠).

وقد جاء عند ابن يعيش، فقال: "وأنّما رأى النّحويون صوتًا أعظم من صوت، فسمّوا العظيم حرفًا، والضّعيف حركة، وإن كانا في الحقيقة شيئًا واحدًا" (ابن يعيش، ٢٠٠١م، ٩/ ٦٤).

جاء في كتاب الرّعاية للقيسي، فقال: " قال بعض أهل النّظر: ليست الحروف مأخوذة من الحركات الثّلاث، ولا الحركات مأخوذة من الحروف، إذ لم يسبق أحد الصّنفين الآخر ...، وهو قولٌ صحيحٌ إنْ شاء الله تعالى" . (القيسي، ٢٠٠٥م، ١٠٦).

يرى العكبري إنَّ حروف المدّ لم تكن ناتجة عن إشباع الحركات؛ بل إنّ الحركة ليست بعض الحرف؛ لأن حروف المدّ ساكنة، ومحال اجتماع ساكن من الحركات. وإذا أشبعت الحركة نشأ منها حرف تامٌّ، وتبقى الحركة قبله بكمالها، فلو كان الحرف حركتين لم تبقَ الحركة قبل الحرف. (ينظر: العكبري، ١٩٩٥م، ١/ ٦٣ – ٦٤).

فإنّ هذا الامتداد الصّوتي قد يؤدي وظائف دلالية متعددة:

١– التعبير عن الانفعال النّفسي، إذ قد يوحي المدّ بالحزن أو الفرح أو التّعجب أو الشوق، حسب السّياق، مثل إطالة الأصوات في الندبة أو الاستغاثة. ومن الأمثلة على هذا السّياق من القرآن الكريم، للتعبير عن الحزن والأسى مدّ للبكاء كما في قوله تعالى: { وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}، (الأنبياء: ١٤)، موضع المدّ "يَاا وَيْلَنَا".

٢– التّوكيد والتّقوية للمعنى، فإطالة الصّوت بحروف المدّ تمنح اللّفظ قوةً وإبرازًا، كما في أساليب النّداء والاستغاثة والتّوجع. ومن الأمثلة على التّوكيد بأسلوب الاستغاثة مدّ (يا)، للطلب الشّديد كما في قوله تعالى :{يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ الله}، (الزّمر، ٥٦)، موضع المدّ: "يَاا حَسْرَتَاا" الألف في (يا)، والألف في "حسرتاا". وللتقوية: الكافر يوم القيامة لا يقول: "ياحسرة" عادية، بل يمدّها "ياا حسرتاااا". المدّ هنا يوكّد شدّة النّداء والاستغاثة، كأنه يصرخ ويستغيث وما أحد يجيبه، كل ما طال المدّ كل ما زادت الحسرة والاستغاثة.

٣– تحقيق الانسجام الإيقاعي، إذ تسهم حروف المد في بناء الإيقاع الصّوتي للنص، مما يعزز أثره الدّلالي والجمالي. ومن الأمثلة من القرآن الكريم على تحقيق على

تحقيق الانسجام الإيقاعي، قوله تعالى: {فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ}، (الضّحى، ٩-١٠). حيث تتكرر الألفات في (فأما، فلا)، فتحدث نغمة إيقاعية متوازنة، كما أنّ تكرار المدّ يسهم في توكيد المعنى وإظهار الجانب التّوجيهي للخطاب.

٤- الإيحاء بالامتداد أو الكثرة أو الاستمرار، فطول الصّوت قد ينسجم مع المعاني الدّالة عل الامتداد الزّمني أو المكاني. ومن أمثلة الامتداد المكاني قوله تعالى: {وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}، (الغاشية، ٢٠)، فالمدود في الألف والياء تسهم في إحداث إقاع صوتي يوحي بالاتساع والانبساط المكاني. ومن أمثلة الامتداد الزمني، قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}، (النّساء، ٥٧)، ففي كلمتي (خالدين)، و(أَبدًا)، مدود تتناسب مع معنى الدّوام والاستمرار الزّمني غير المنقطع، مما يحقق توافقًا بين البنية الصّوتية والدّلالية.

ويمكن القول في الدّراسات اللّسانية الوظيفية إن حروف المدّ لا تؤدي وظيفة صوتية فحسب، بل تسهم في بناء الإيقاع النّصي، وتحقيق انسجامًا بين البنية الصّوتية والدّلالية، إذ يتآزر امتداد الصّوت مع المعنى المراد إيصاله إلى المتلقي.

أمّا عدم الابتداء بهما فلأنّ الحركة لابدّ أنْ تصاحب الحرف معه أو بعده؛ لأن لكل منهما وجه، لذا لم تقع أولًا، والمدّ لايكون إلّا ساكنًا، والعربية لا تبتدأ بساكن، يقول ابن جني: "الحرف الواحد لا يتحمل حركتين لا متفقتين، ولا مختلفتين" (ابن جني، ١٩٥٤م، ١/ ٢٧)،

المبحث الثّاني: أحرف المدِّ في تصور القدماء

يرى اللّغويون القدماء أنْ أحرف المدّهي الحروف التي يطول بها الصّوت ويمتد عند النّطق, وهي ثلاثة: الألف السّاكنة المفتوح ما قبلها، مثل: قَالَ, والواو السّاكنة المضموم ما قبلها، مثل: يقُوْل، والياء السّاكنة المكسور ما قبلها، مثل: قِيْل. وقد نظر القدماء

إلى هذه الحروف بوصفها أصواتًا هوائية رخوة يخرج معها النّفس ممتدًّا من غير عائق، ولذلك سُميتْ حروف المد واللّين. وقد فرقوا أحيانًا بين المدّ واللّين؛ فالمد يكون مع التّجانس التّام بين الحركة والحرف، أما اللّين فيكون في الواو والياء السّاكنتين المفتوح ما قبلها مثل: خوف وبيت. ومن أبرز تصورات القدماء لهذه الحروف:

فقد وردتْ في معجم العين : " قال الخليل: في العربية تسعة وعشرونَ حَرْفا: منها خمسة وعشرونَ حَرْفاً صِحَاحا لها أحياناً ومدارج، وأربعة أحرف جُوْف وهي : الواو والياء والألف اللَّينَة والهمزة، وسُمِّيَتْ جوفاً لأنها تَخْرُجُ من الجوف فلا تَقَعُ في مدرجة من مدارِج اللِّسان، ولا من مدارِج الحَلْق، ولا من مدرِج اللهاة، إنَّما هي هاوية في الهواء فلم يكن لها حَيز تُنسب إليه إلا الجَوْفَ وكان يقول كثيرا: الألِفُ اللَّينَةُ والواو والياءُ هوائية أي أنها في الهواء" (الفراهيدي، ١٩٨٠م، ١/ ٥٧) . فهذه صورة الحُرُوف التي أُلِّفَتْ منها العربية على الولاء، وهي تسعة وعشرون حرفًا: ع ح ه خ غ، ق ك، ج ش ض، ص س ز، ط د ت، ظ ذ ث، ر ل ن، ف ب م، فهذه الحروف الصحاح، و ا ي ء فهذه تِسعة وعشرون حرفا منها أبنيةِ كلامِ العربِ.

فقد تكلم الخليل عن حروف العلة أطلق عليها مصطلح (الحروف الهوائية), أو حروف (الجوف)، وهذه الأصوات هي: الألف، والواو، والياء، ثم علل هاتين التسميتين بأن هذه الأصوات تخرج من الجوف، فلا تخرج في مدرجة وهي في الهواء، فلم يكن لها حيزٌ تنسب إليه إلا الجوف أو الهواء. وهنا نجد الخليل يستخدم مصطلح الحروف الهوائية مرة ومرة أخرى حروف الجوف وقد استخدم مصطلح اللّينة (الالف)، ومصطلح الهوائية (الواو، والياء).

أمَّا سيبويه فيرى (ت ١٨٠هـ)، أنّ أحرف المدّ أصواتٌ يخرج بها الصّوت من الحلق والفم امتدادًا دون كلفة، وقد خصّها ببابٍ في كتابه وعدّها من الحروف الجوفية

التي لا يعتمد في مخرجها على عضوٍ بعينه، بل يجري فيها الصوت في جوف الفم إذ يقول: " وهذه الحروف غير مهموسات، وهي حروف لينٍ ومدٍّ، ومخارجها متسعة لهواء الصوت؛ وليس شيء من الحروف أوسع مخارج منها؛ ولا أمد للصوت؛ فإذا وقفت عندها لم تضمها بشفةٍ ولا لسانٍ ولا حلقٍ كضم غيرها؛ فيهوى الصوت إذا وجد متسعاً حتى ينقطع آخره في موضع الهمزة" (سيبويه، ١٩٨٨م، ٤/ ١٧٦). نجد سيبويه استخدم مصطلح (لين), ومصطلح (مدّ).

إمَّا جهود ابن جني (ت٣٩٥هـ)، في مجال الصوتيات جبارة، تميزت عن غيرها بالدقة والتفصيل، بما فيه ذلك دراسته للصوائت العربية، لا سيما عندما تطرق إلى قضية الإعلال إذ يقول: " وللحروف قسمة أخرى، إلى الصحة والاعتلال، فجميع الحروف صحيح، إلا الألف والياء والواو، اللواتي هن حروف المدّوالاستطالة، ... أن الألف أشد امتدادا، وأوسع مخرجا، وهو الحرف الهاوي "(ابن جني، ١٤٢١هـ، ١/ ١٧٦) ، إذ استخدم مصطلح (المدّ) واستخدم مصطلح الهاوي للألف كما خصه سيبويه بهذا المصطلح .

وقد جاء مثل هذا القول عند الإستراباذي، قوله: "لأنك تضم شفتيك للواو فيتضيّق المخرج، وترفع لسانك قبل الحنك للياء، وأمّا الألف فلا تعمل له شيئًا من هذا، بل تفرج المخرج؛ فأوسعهن مخرجًا الألف". (الإستراباذي، ١٩٨٢م، ٣/ ٢٦١).

وينقل الدكتور كمال بشر، فيقول: " هناك من العلماء القدامى من جروا على استعمال المصطلحين (الصائت والمصوت)، وما تفرع منهما في بحوثهم فهذا ابن جني مثلا يسمى الحركات الطّويلة بالمصوتات أو الحروف المصوتة" (كمال بشر، ١٩٧٥م، ٧٣). وعند متابعتي لما ذكره الدكتور كمال بشر لم اعثر عليه في الخصائص، ولا أبرء نفسي من عدم الدقة، ولكن عثرت على كلام مشابه لما نقله دكتورنا الكبير في

كتاب آخر لابن جني (سر صناعة الاعراب)، فيقول: " فأما القول على لفظهما فإنّ الصوت مصدر صات الشيء يصوت صوتا فهو صائت وصوت تصويتا فهو مصوت وهو عام غير مختص يقال سمعت صوت الرّجل وصوت الحمار، قال الله تعالى: **{ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}، (لقمان: ١٩)**" (ابن جني، ١٩٥٤م، ١/ ٢٣). لا يقصد به مصطلح الصائت الذي يطلق على حروف المدّ كما يبدو .

وقد فرق القدماء بين الحركات وحروف المدّ مع ما بينها من اشتراك، فأطلقوا على (الألف، والياء، والواو)، حروف المدَّ ، وسمَّوا الفتحة، والكسرة، والضّمَّة، حركات لا شكَّ أنَّ المتقدمين قد طرَقَ هذا التساؤل أذهانهم عن وجه التقارب بين حروف المد والحركات الثلاث؛ لذلك ابن جني يقول: " وإنما سميت هذه الأصوات النّاقصة حركات، لأنها تقلق الحرف الذي تقترن به، وتجتذبه نحو الحروف التي هي أبعاضها، فالفتحة تجتذب الحرف نحو الألف والكسرة تجتذبه نحو الياء، والضّمة تجتذبه نحو الواو، ولا يبلغ الناطق بها مدى الحروف التي هي أبعاضها، فإن بلغ بها مداها، تكملت له الحركات حروفا، أعني ألفا وياء وواوًا" (ابن جني، ١٩٥٤م، ١/ ٤٢). ويوضح هذا النص ابن جني اكثر بقوله: " فالمفتوح: هو الذي إذا أشبعت حركته حدثت عنها ألف، نحو ضاد ضرب، لك أن تشبع الفتحة، فتقول: ضارب. والمكسور: هو الذي إذا أشبعت حركته حدثت عنها ياء نحو ضاد ضراب، لك أن تشبع الكسرة، فتقول: ضيراب. والمضموم: هو الذي إذا أشبعتْ حركته حدثت عنها واو، نحو ضاد ضرب، لك أن تشبع الضمة، فتقول: ضورب، إلا أن هذه الأحرف اللائي يحدثن لإشباع الحركات، لا يكن إلا سواكن، لأنهن مدات والمدات لا يتحركن أبدا"(ابن جني، ١٩٥٤م، ١/ ٤٣).

ويوضح ابن يعيش قول ابن جني، بقوله: " اعلم أنّ الفتحة قد تمال كما تمال الألف؛ لأنّ الغرض من الإمالة مشاكلةُ الأصوات، وتقريبُ بعضها من بعض. وذلك موجودٌ في الحركة كما هو موجود في الحرف؛ لأنّ الفتحة من الألف. وقد كان المتقدّمون يسمّون الفتحة الألفَ الصغيرةَ، والضمّة الواو الصغيرة؛ والكسرة الياء الصغيرة؛ لأنّ الحركات والحروفَ أصواتٌ. وإنّما رأى النحويون صوتًا أعظمَ من صوت، فسمّوا العظيمَ حرفًا، والضعيفَ حركةً، وإن كانا في الحقيقة شيئًا واحدًا، فلذلك دخلت الإمالةُ في الحركة كما دخلت الألف، إذ الغرضُ إنّما هو تجانسُ الصوت، وتقريبُ بعضها من بعض. فكلُّ ما يوجب إمالةَ الألف يوجب إمالة الحركة التي هي الفتحةُ، وما يمنع إمالةَ الألف يمنع إمالة الفتحة "(ابن يعيش، ٢٠٠١م،٥/ ٢٠٤) .

وعلى هذا فإن التّفريق بينهما مبني على كميّة الصوت، أو بمعني آخر الوقت الذي يستغرقه النطق بكل منهما، ولذلك يقول ابن سينا: " ولكنني أعلم يقينا أنَّ الألف الممدودة المصوتة تقع في ضعف أو أضعاف زمان الفتحة، و أنَّ الفتحة تقع في أصغر الأزمنة التي يصحّ فيها الانتقال من حرف إلى حرف، و كذلك نسبة الواو المصوتة إلى الضمَّة، والياء المصوتة إلى الكسرة "(ابن سينا، ١٩٨٣م، ٨٥). وهذه النصوص التي عرضها الباحث هي نزر قليل مما قيل في مفهوم المدّ يشبه من وجه الباحث ماجاءت به اللسانيات الوظيفية الفونولوجيا، التي تدرس الصوت لا من حيث مخارجه فحسب، بل من حيث وظيفته التمييزية في النظام الصوتي ففي الفونولوجيا المقطعية: يرى المحدثون أن أحرف المدّ تمثل فواعل صوتية طويلة تقابل الفواعل القصيرة، وتدخل في بناء المقطع الصوتي فيحمل الصوت وظيفة تمييزية إذ يسهم في ضبط النسق الإيقاعي للكلام العربي، كما في التلاوة القرآنية والشعر.

وقد بيّن أندريه مارتينيه أنّ العلاقة بين (الوظيفة)، و (الشكل)، أساس في تحليل النظام اللغوي، وهو ما يمكن إسقاطه على المدّ في العربية؛ إذ ليس مجرّد صوتٍ ممتدّ، بل عنصر ذو وظيفة معنوية وصوتية.

و تحدّث الجرجاني(ت٤٧١هـ)، عن الأثر الجمالي لأحرف المدّ في الإيقاع والمعنى، فقال: " المدّ يُطيل زمن الصوت فيحدث في السمع رخاوةً تليق بمقام الرحمة، أو امتدادًا يوافق مقام الفخامة ومثال ذلك قوله تعالى: {الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ}، (طه: ٥)، إذ يُحدث مدّ الألف في الرحمن واستوى امتدادًا صوتيًا يعبّر عن السموّ والرفعة" (عبد القاهر الجرجاني، ١٩٩٢م). وهذه ملاحظة بلاغية ذات طابعٍ سمعيّ وظيفيّ وهذا يشير إلى إدراكٍ مبكرٍ للعلاقة بين السّياق الصوتي ووظيفة الحرف.

جاء في كتاب شرح طيبة النّشر لابن الجزري، بقوله: " حرف المدّ هو الألف والواو السّاكنة المضموم ما قبلها والياء السّاكنة المكسور ما قبلها كما تقدم في أول مخارج الحروف، فإذا وقع حرف هذه الأحرف الثّلاثة قبل الهمز زيد على مدّ الحرف طولًا وتوسطًا". (ابن الجزري، ٢٠٠٠م، ٧١– ٧٢).

ويرى الدكتور كمال بشر أنَّ السبب في هذا التفريق إنَّما هو نظرية الأصول، هذا من جهة، ومن جهة أخرى التأثُّر بالكتابة، ذلك أنّ الحروف لها رموز مستقلّة، أمّا الحركات فرموزها متأخرةٌ نسبيّا (ينظر: كمال بشر، ١٩٧٥م، ٧٦).

ثانيا :أحرف المدّ في تصورات المحدثين

إنَّ مشكلة المحدثين الذين أرادوا تبسيط ما ذكره القدماء حول مفهوم حروف المدّ وتعدد المصطلح تبعًا لتعدد المفهوم، ولكن تعددت لديهم المصطلحات تبعا للأسس الفكرية والمنطقية والمعرفية التي انطلقوا منها ولاسيما الاساتذة المصريون الذين جُلّهم تتلمذ على يدِّ (فرث) سواء كانت التلمذة مباشرةً أو غيرَ مباشرةٍ، وقد تنوعت اجتهاداتهم

في وضع المصطلح زاد المسألة تعقيدا خاصة حرفي اللين (الواو والياء)، " إن هذين الصوتين قد حظيا في القديم والحديث ببحوث تتفاوت مستوى، وتختلف بالتالي النتيجة" (إبراهيم أنيس، ٢٠٠٥م/ ٤٢)، فقد تحدث إبراهيم أنيس عن الاصوات تحت مصطلح (أشباه أصوات اللين), واصطلح عليها الاصوات الانتقالية، فإن "الياء صوت انتقالي، أي أنها تتكون في موضع صوت لين ثم تنتقل بسرعة إلى موضع آخر من مواضع أصوات اللين وكذلك الواو يبدأ تكوينها صوت لين ثم ينتقل اللسان بسرعة إلى موضع صوت لين آخر فكل من الياء والواو صوت انتقالي، ولقصرهما وقلة وضوحهما في السمع إذا قيسا بأصوات اللين، أمكن أن يعدا من الاصوات الساكنة. فالياء والواو طبيعة مزدوجة" (إبراهيم أنيس، ٢٠٠٥م، ٤٣).

و نجد إبراهيم أنيس يستعمل أكثر من مصطلح لحرفي الياء والواو المديين فتارة يطلق مصطلح الساكن كما قال القدماء وتارة أخرى يستعمل مصطلح المزدوج وتارة اخرى مصطلح اللين وهذا المصلح حدد عند القدماء عندما يكونان ساكنان مفتوح ما قبلها برغم من أن إبراهيم أنيس يرفض سكون حروف المد؛ لأنه يعدهما حركات والحركة لا تحرك بحركة استعمل المصطلح عاملًا بوعيه الباطن متشربًا بالفكر اللّغوي القديم رغم أنه كان ثائرًا عليه .

ويشير إبراهيم أنيس إلى مصطلحات المستشرقين فيما اصطلحوا على الواو والياء "انصاف صوامت، صوامت ضعيفة، أنصاف مصوتات"(عبد الصّبور شاهين، ٢٠٠٧م، ٤١) .

واستعمل كمال بشر مصطلح الحركات للحروف المدّ ويقصد بهذا المصطلح (حروف المدّ وعلامات الاعراب ـُ، ـِ ،ـَ)، معللا هذا الاستعمال، بقوله: " أما هذه التسمية فهي تسمية جيدة ومقبولة وإن كان من الجائز تسميتها بالصائتة أو المصوتة وقد آثرنا

هنا استعمال مصطلح الحركات لشهرته الواسعة ووضوح مدلوله" (كمال بشر، ١٩٧٥م، ٧٣).

وانفرد الدكتور غالب المطلبي بأطلاق مصطلح (أنصاف المدّ) على الألف والياء عندما تكونان ليسا حرفي مدٍّ (ينظر: غالب فاضل المطلبي، ١٩٨٤م، ٢٢٦) .

وخلصت هذه الدراسة إلى أنّ أحرف المدّ لم تكن في الفكر اللغوي العربي القديم مجرد ظاهرةٍ صوتيةٍ، بل كانت جزءًا من رؤيةٍ متكاملةٍ تربط الصوت بالمعنى، والشكل بالوظيفة، ومع تطوّر اللسانيات الحديثة، ولا سيما الوظيفية منها، تأكّد هذا المعنى في إطارٍ علميّ دقيقٍ يُبرز الطابع الاتصالي للأصوات في النظام اللغوي العربي.

فإنّ الجمع بين رؤية القدماء واستبصارات المحدثين يتيح لنا بناءَ تصورٍ شاملٍ لأحرف المدّ، يقوم على أن اللغة كائنٌ حيّ تتفاعل فيه الأصوات والمعاني والوظائف.

بيّن جعفر عبابنة، قوله: "إن المحدثين لايقبلون كثيرًا من حجج القدماء والأسس التي انطلقوا منها في بعض معالجاتهم الصّرفية مثل مساواتهم في النّظرة بين حروف المدّ واللّين، ونثل القول بإن حروف المدّ السّاكنة، وأنها مسبوقة بحركات من جنسها". (عبابنة، ٢٠٠٤م، ٤٨).وقد ذكر الدّكتور سعيد شواهنة، بقوله: "لقد خلط القدماء في توصيف أصوات المدّ واللّين، وبناء على ذلك خلطوا في تفسير بعض السّلوكيات الصّرفية لعدم تفريقهم بين هاتين المجموعتين الصّوتيتين. فالواو والياء في الدّرس الصّوتي الحديث يقعان تحت مجموعتين صوتيتين: الأولى وهي الحركات الطّويلة كما في يدعو ويقضي، والثّانية هي: أنصاف الحركات كما في بيْت ولوْن، ووعد، ويعد ولكنهما أقل وضوحًا في السّمع من الحركات؛ بسبب ذلك التضييق المصاحب لإنتاجهما، ومن ناحية وظيفية (فونولوجية) تقوم بدور الصّامت من حيث النّسيج المقطعي للغة العربية". (شواهنة، ٢٠٠٩م، ٢١٣).

نتائج البحث

إنَّ حروف المدّ ليست مجرد أصوات طويلة تؤدي وظيفية نطقية فحسب، بل هي عناصر لغوية ذات أبعاد وظيفية متعددة تسهم في بناء المعنى، وتحقيق التّمايز الدّلالي. ويمكن أنّ تتضمن نتائج البحث النّتائج الآتية:

١- أظهرت الدّراسة أنّ مفهوم أحرف المدّ عند اللّغويين القدماء ارتبط أساسًا بالجانب الصّوتي والأدائي.

٢- إنَّ القدماء لم يفصلوا فصلًا تامًا بين مفهوم المدّ والحركات، بل نظروا إلى حروف المدّ بوصفها امتدادًا للحركات القصيرة من حيث المخرج والصّفة.

٣- بينت الدّراسة أنَّ المصطلحات المستعملة عند القدماء تنوعت بين: حروف المدّ، وحروف اللّين، والحروف الجوفية، والأصوات الهوائية.

٤- إنَّ اللّسانيين المحدثين أعادوا توصيف أحرف المدّ ضمن إطار الفونيتيك والفونولوجيا بوصفها صوائت طويلة، مع التّركيز على خصائصها الفيزيائية والوظيفية داخل النّظام اللّغوي.

٥- بينت الدّراسة أن التّحليل الوظيفي لأحرف المدّ يتيح فهمًا أعمق للعلاقة بين البنية الصّوتية والمعنى.

٦- خلص البحث إلى أن اللّسانيات الوظيفية تمثل إطارًا مناسبًا لإعادة قراءة التّراث اللّغوي العربي.

خلاصة البحث

إنَّ تتبع مفهوم أحرف المدّ ومصطلحها في التّراث اللّغوي العربي والدّراسات اللّسانية الحديثة، والكشف عن أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما, مع بيان الوظائف اللّغوية التي تؤديها هذه الأصوات في ضوء المنظور الوظيفي.

وكما قد أظهرت الدّراسة أن علماء العربية القدماء أولوا أحرف المدّ عناية كبيرة، فربطوا بينها وبين الحركات المجانسة لها، وعدّوها أصواتًا يطول زمن النّطق بها، تتمثل في الألف والواو والياء.

أمّا الدّراسات اللّسانية الحديثة فقد أعادت توصيف أحرف المدّ صمن إطار علم الأصوات والفونولوجيا، وعدّتها صوائت طويلة تتميز بخصائص صوتية وزمنية محددة، مع التركيز على دورها في بناء النّظام الصّوتي للغة العربية.

وخلص البحث إلى أن التّصور التّراثي لأحرف المدّ يلتقي في كثير من جوانبه مع التّصورات اللّسانية الحديثة، وأن اللّسانيات الوظيفية توفر إطارًا علميًا فاعلًا لفهم أبعاد هذه الحروف ووظائفها المختلفة، بما يسهم في إعادة قراءة التّراث اللّغوي العربي قراءةً تجمع بين الأصالة والمعاصرة، وتبرز القيمة الوظيفية لأحرف المدّ في النّظام اللّغوي العربي.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١– أسباب حدوث الحروف، للشيخ الرّئيس ابي علي الحسين بن عبد الله بن سينا (ت٤٢٨هـ)، تح: محمد حسان الطّيان ويحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللّغة العربية بدمشق دمشق– سوريا، ١٩٨٣م.

٢– الاصوات اللغوية : إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجو المصرية :ط٧ ، ٢٠٠٥م.

٣– الحركات وحروف المدّ واللّين بين القدماء والمحدثين، د. سعيد شواهنة، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدّراسات، العدد: ١٦، حزيران ٢٠٠٩م.

٤– الرّعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التّلاوة، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ)، تح: أبو عاصم حسن بن قطب، ٢٠٠٥م.

٥- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، عبد الصبور شاهين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣ ٢٠٠٧م.

٦- الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (ت١٨٠هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٧- اللّباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء عبد الله بن الحسين الكعبري (ت ٦١٦هـ)، تح: د. عبد الإله النبهان، النّاشر: دار الفكر/ دمشق - سوريا، ١٩٩٥م.

٨- دلائل الإعجاز في علم المعاني: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تح: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط ٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٩- سرُّ صناعة الإعراب، لأبي الفتح بن جني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط ١، ١٩٥٤م.

١٠- شرح المفصل للزمخشري: يعيش بن علي بن يعيش المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (ت ٦٤٣هـ)، تح: الدكتور إميل بديع يعقوب، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م: ٥ / ٢٠٤.

١١- شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدّين محمد بن حسن الإستراباذي (ت ٦٨٦هـ)، تح: محمد نور الحسين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٨٢م.

١٢- شرح طيبة النّشر في القراءات، شمس الدّين أبو الخير ابن الجزري (ت٨٣٣هـ)، تح: أنس مهرة، النّاشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٢، ٢٠٠٠م.

١٣- علم اللغة العام الاصوات، كمال بشر، دار المعارف بمصر، ط٤، ١٩٧٥م.

١٤- في الأصوات اللّغوية - دراسة في اصوات المد العربية، الدّكتور غالب فاضل المطلبي، دائرة الشّؤون الثّقافية والنّشر، ١٩٨٤م،

١٥- معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر / بغداد - العراق، ١٩٨٠م .

١٦- نتائج الفكر في النّحو، أبو القاسم عبد الرّحمن بن عبد الله السّهيلي (ت ٥٨١هـ)، النّاشر: دار الكتب العالمية، بيروت_ لبنان، ط١، ١٩٩٢م.

Sources and References

The Holy Quran

1. The Causes of the Occurrence of Letters, by Sheikh al-Ra'is Abu Ali al-Husayn ibn Abdullah ibn Sina (d. 428 AH), edited by Muhammad Hassan al-Tayyan and Yahya Mir Alam, Publications of the Arabic Language Academy in Damascus, Damascus, Syria, 1983
CE.
2. Linguistic Sounds, by Ibrahim Anis, Al-Anju Library, Egypt: 7th edition, 2005 CE.
3. Vowels and Letters of Prolongation and Softening: Between the Ancients and the Moderns, by Dr. Saeed Shawahneh, Al-Quds Open University Journal for Research and Studies, Issue: 16, June 2009 CE.
4. Care for the Improvement of Recitation and the Accuracy of the Pronunciation of the Recitation, by Abu Muhammad Makki ibn Abi Talib al-Qaysi (d. 437 AH), edited by Abu Asim Hassan ibn Qutb, 2005 CE.
5. Qur'anic Readings in Light of Modern Linguistics, by Abd al-Sabur Shahin, Al-Khanji Library, Cairo, 3rd edition, 2007.
6. Al-Kitab, by Amr ibn Uthman ibn Qanbar al-Harithi, Abu Bishr, known as Sibawayh (d. 180 AH), edited by Abd al-Salam Muhammad Harun, published by Al-Khanji Library, Cairo, 3rd edition, 1408 AH - 1988 CE.
7. Al-Lubab fi Ilal al-Bina' wa al-I'rab, by Abu al-Baqa' Abd Allah ibn al-Husayn al-Ka'bari (d. 616 AH), edited by Dr. Abd al-Ilah al-Nabhan, published by Dar al-Fikr, Damascus, Syria, 1995 CE.
8- The Signs of Inimitability in the Science of Meanings: Abu Bakr Abd al-Qahir ibn Abd al-Rahman ibn Muhammad al-Jurjani (d. 471 AH), edited by Mahmud Muhammad Shakir Abu Fahr, published by al-Madani Press in Cairo - Dar al-Madani in Jeddah, 3rd edition, 1413 AH - 1992 CE.
9- The Secret of the Art of Parsing, by Abu al-Fath ibn Jinni, Mustafa al-Babi al-Halabi Press, Egypt, 1st edition, 1954 CE.
10- Al-Zamakhshari's Al-Mufassal Commentary: by Ya'ish ibn 'Ali ibn Ya'ish, known as Ibn Ya'ish and Ibn al-Sani' (d. 643 AH), edited by Dr.

Emil Badi' Ya'qub, published by Dar al-Kutub al-'Ilmiyya, Beirut, Lebanon, first edition, 1422 AH - 2001 CE: 5/204.
11- Ibn al-Hajib's Al-Shafiya Commentary: by Radi al-Din Muhammad ibn Hasan al-Istrabadi (d. 686 AH), edited by Muhammad Nur al-Husayn, published by Dar al-Kutub al-'Ilmiyya, Beirut, Lebanon, 1982 CE.
12- Tayyibat al-Nashr fi al-Qira'at Commentary: by Shams al-Din Abu al-Khayr Ibn al-Jazari (d. 833 AH), edited by Anas Mahra, published by Dar al-Kutub al-'Ilmiyya, Beirut, Lebanon, second edition, 2000 CE.
13- General Linguistics: Phonetics: by Kamal Bishr, published by Dar al-Ma'arif, Egypt, fourth edition, 1975 CE.
14. On Linguistic Sounds - A Study of Arabic Vowel Sounds, Dr. Ghalib Fadhil Al-Mutalibi, Department of Cultural Affairs and Publishing, 1984.
15. Al-Ayn Dictionary, Al-Khalil ibn Ahmad Al-Farahidi, edited by Dr. Mahdi Al-Makhzoumi and Dr. Ibrahim Al-Samarrai, Dar Al-Rashid Publishing, Baghdad, Iraq, 1980.
16. The Results of Thought in Grammar, Abu Al-Qasim Abd Al-Rahman ibn Abd Allah Al-Suhayli (d. 581 AH), Publisher: Dar Al-Kutub Al-Alamiyya, Beirut, Lebanon, 1st edition, 1992.